سيميائيّة أم سيميولوجيا ؟*

عبـد العالي بشيـر

جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسـان - الجزائـر

• مقدّمة منهجيّة

إن التفكير في أنظمة العلامة في الفلسفة الغربية له تاريخ طويل، ولكنه بدأ فعلا مع بداية القرن العشرين تحت اسم "السّيميائية" المقترح من قبل الفيلسوف الأمريكي Charles Sanders Peirce أو "السيميولوجيا" المصطلح الذي استعمله اللساني السويسري Ferdinand de Saussure في دراساته. وغالبا ما يقع الخلط بين هذين المصطلحين لدى الدارسين، وسوف أحاول في هذه المداخلة إزالة هذا اللبس. ولكن قبل ذلك لا بأس من تخصيص بعض الصفحات للحديث عن تاريخ نشأة المصطلحين، ومحاولة تحديد مفهوم كل منهما.

1- السيميولوجيا

إن تاريخ السيميولوجيا يعود إلى ألف سنة مضت، ويرى "أمبرتو إيكو" أن الرواقيين** هم أول من قالوا بأن العلامة هي دال ومدلول، وأن السيميائية المعاصرة ارتكزت في فلسفتها وبعدها الفكري على اكتشافهم.[1]

وكلمة "سيميولوجيا" مشتقة من الكلمة الإغريقية sémeion بمعنى العلامة signe. وابتداء من سنة 1752 استعمل مصطلح السيميولوجيا في المجال الطبي، وأصبح يطلق على قسم من الطب يعالج أعراض الأمراض/ Partie de la médecine qui traite des symptômes des maladies et de leurs signes cliniques.[2]

ومع بداية القرن العشرين بشر عالم اللسانيات "فرديناند دي سوسير" (1857-1913) بميلاد علم جديد أطلق عليه اسم "السيميولوجيا" يهتم بدراسة "حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية"، ولا تشكل الألسنية ذاتها إلا جزء منه. وقد انتقد رولان بارت في كتابه «عناصر السيميولوجيا» الأطروحة السوسسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في السيميولوجيا، إذ يعتبر أن السيميولووجيا هي الجزء واللسانيات هي الكل. ومعنى ذلك أن السميولوجيا أثناء دراستها لبعض أنظمة العلامات غير اللغوية تعتمد على عناصر اللسانيات، ومن أهم هذه العناصر الدال والمدلول، واللغة والكلام، والمحور النظمي والمحور الاستبدالي. ويرى Emile Benveniste «أن اللغة هي المفسر أو المترجم لكل الأنظمة السيميائية، لأنه لا يمكن تجلية أي شيء بدون لغة».[3]

وهناك من يتوسع في تعريف السيميولوجيا فيرى أنها العلم الذي يهتم بدراسة العلامات أو الإشارات أو الدوال اللغوية أو الرمزية سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية. ويفهم من هذا التعريف أن العلامة إما أن تكون اصطناعية/ اصطلاحية ومتفق على دلالاتها ومقاصدها مثل : اللغة الإنسانية ولغة إشارات المرور. وإما أن تكون طبيعية مفرزة بشكل عفوي ولا دخل للإنسان فيها، وذلك كأصوات الحيوانات وأصوات عناصر الطبيعة والمحاكيات الدالة على التوجع والتعجب والألم والصراخ.[4]

وإذا كانت اللسانيات تدرس العلامة اللغوية، فإن السيميولوجيا تدرس العلامة اللغوية وغير اللغوية، أي تتعدى المنطوق إلى ماهو بصري كعلامات المرور ولغة الصم والبكم والشفرة السرية ودراسة الأزياء وطرائق الطبخ.

وقد تعددت اتجاهات السيميولوجية ومدارسها في الحقل الفكري الغربي، إذ يمكن الحديث عن سيميولوجيا الدلالة، وسيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الثقافة والمدرسة الإيطالية، والمدرسة الروسية، ومدرسة باريس***. ولكن على الرغم من كثرة الاتجاهات إلا أنه يمكن إرجاع السيميولوجيا إلى قطبين أساسيين هما: سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة.

يتبين لنا من خلال هذا العرض الوجيز أن السيميولوجيا باعتبارها علما للأنظمة اللغوية وغير اللغوية قسمان : سيميولوجيا الإبلاغ والتواصل وتهدف إلى ربط الدليل بالمدلول والوظيفة القصدية. وسيميولوجيا الدلالة وتهدف إلى ربط الدليل بالمدلول أو المعنى. بعبارة أخرى إن سيميولوجيا الدلالة ثنائية العناصر بينما سيميولوجيا التواصل ثلاثية العناصر.

بقي أن نشير إلى أن علم السميولوجيا قد غزا جميع الميادين والتخصصات، فأصبحنا نسمع اليوم بـ"السيميولوجيا البصرية" Sémiologie visuelle و"سيميولوجية التصوير" Sémiologie de la photographie و"سيميولوجية السينما" sémiologie du cinéma و"سيميولوجية الموسيقى" Sémiologie de la musique.

2- السيميائيّة

لقد استعمل أفلاطون مصطلح Sémiotiké إلى جانب مصطلح Grammatiké بمعنى تعلم القراءة والكتابة. ويختفي هذا المصطلح قرونا طويلة ليعود مع الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632 ـ 1704) في حدود سنة 1960.[5] ولكن الدراسة السيميائية في عصره لم تخرج عن إطار النظرية العامة للغة والفلسفة. والسيميائية «هي علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها» أو «هي العلم الذي يدرس بنية العلامات وعلائقها في هذا الكون، ويدرس أيضا توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية»[6]. وهذا يعني أن النظام الكوني بما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة. والواقع أن السيميائية لم تصبح علما مستقلا بذاته إلا عن طريق العمل الذي قام به C.S .Peirce (1839 ـ 1914) حيث اقترح أن تصنف العلامات بحسب طبيعة العلاقات القائمة بين الدال والمدلول والمرجع (l'objet du réel auquel renvoie le signe)[7]. إن معظم السيميائيين يقرون بفضل "بيرس" العلمي عليهم، والذي صارت معه السيميائية اختصاصا مستقلا حقيقة. ولم تقف السيميائية عند حدودها العلمية، بل تجاوزتها إلى الوسائل المنهجية، حيث تحولت من علم موضوعه العلامة، ومنهجه التحليل البنيوي عادة إلى منهج قائم بذاته.

كما تفرعت عنها عدة اختصاصات مثل السيميائية اللسانية البنيوية La sémiotique linguistique structurale التي كانت سببا في ميلاد السيميائية الأدبية أو"السيميائية السردية" والتي وجدت مجال تطبيقاتها في النصوص السردية، كما تجلى ذلك في أعمال رولان بارث 1965 "Essais critiques" و 1970 "sz" و1971 "Sade, Fourier, Loyola"، وأعمال غريماس 1970 "Du sens, essais de sémiotique"، وكلود لفيستروس (Anthropologies structurale (1973)"[8].

ويقابل هذه الكلمة في اللغة العربية (السومة والسيمة والسيما والسيمياء والسيميائية) وتستعمل للدلالة على العلامة.[9] والخيل المسومة هي التي عليها "السيما والسومة" وهي العلامة.[10] وقد وردت لفظة "سيمياء" في محيط المحيط لتدل على العلامة والحسن والبهجة.[11]

وقد جاءت هذه الكلمة في النص القرآني بمعنى العلامة، يقول تعالى : ﴿للفقراء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : 273) : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح : 29).

وبعد هذا العرض السريع نقول إن السيميائية تتداخل بالسيميولوجيا تداخلا مريعا في الكتابات العربية والغربية، فقد قدم تودروف وديكرو مثلا هذين المصطلحين بصيغة التخيير "La sémiotique ou sémiologie est la science des signes".[12] واحتفظ القاموس الموسوعي الجديد بالصيغة نفسها، مع تغير طفيف في التعريف "السيميائية (أو السيميولوجيا) هي دراسة العلامات والسيرورات التأويلية".[13]

أما جورج مونان فقد ميز بين المصطلحين فقال إن السيميائية تستعمل للدلالة على نظام من العلامات غير اللغوية، كإشارات المرور.[14]

نستنتج مما سبق أن كلا المصطلحين يشتغلان على العلامة، ولكن وعلى الرغم من ذلك فهناك فروق جوهرية بينهما يمكن الإشارة إليها في النقاط الآتية :

- إن مصطلح السيميائية معطى ثقافي أمريكي يحيل على مفاهيم فلسفية شاملة، ويستعمل للدلالة على العلامات غير اللغوية. أما مصطلح السيميولوجيا فهو معطى ثقافي أوروبي، ويستعمل للدلالة على العلامات اللغوية.
- السيميولوجيا تعتني بدراسة طريقة اشتغال بعض التقنيات المسخرة للتبليغ في المجتمع، أما السيميائية فإنها تعتني بدراسة الأشياء التي تنأى عن التبليغ "الروائح والثوب" وبذلك يمكن القول إن السيميائية تقترب من التفكير الفلسفي.
- غالبا ما يستعمل مصطلح السيميائية -في فرنسا- بمعنى السيميائيات العامة، في حين يحيل استعمال مصطلح سيميولوجيا على سيميائية خاصة.
- مصطلح السيميولوجيا مرتبط عند الفرنسيين بكل ما هو نظري وبفلسفة العلامات وعلم العلامات والأشكال، أما مصطلح سيميائية فقد حصره علماء أمريكة في كل ما هو نصي وتطبيقي وتحليلي.
- يشترك المصطلحان في اتخادهما العلامة علما، وأن هذه العلامات تجري مجرى النظام الشكلي. ويشتركان أيضا في الأصل نفسه "اللفظ اليوناني séméion" ولكنهما يحيلان على تقاليد مختلفة.
- تطمح السيميائية إلى أن تتشكل علما للدلالة يهدف إلى فهم سيرورات إنتاج المعنى من منظور تزامني.

وفي الأخير نقول يتم الآن استعمال اللفظين في العديد من المواقف دون تمييز، غير أن اللجنة الدولية التي قامت بإنشاء "الجمعية الدولية للسيميائيات" في جانفي 1969 قبلت مصطلح سيميوطيقا باعتباره يغطي كل معاني اللفظين.

الإحالات

*- أثناء إعدادي لهذه المداخلة استأنست بمقالين نشرا في مجلة بحوث سيميائية، العدد 3 ـ 4 جوان ديسمبر 2007، الأول بعنوان السيميولوجيا أو السيميائية ؟ الموضوعات والأهداف، جون ماري كليكنباغ، لصاحبه الأستاذ الدكتور بن مالك رشيد، والثاني بعنوان المقاربة السيميولوجية " جان كلود دومينجوز مدرسة الفنون التزيينية، للأستاذ جمال بلعربي.

**- هم من العمّال الأجانب في أثينا، أصلهم الحقيقي يعود إلى الكنعانيين الفنيقيين القادمين من أرض كنعان (من تخوم صيدا إلى غزة فالبحر الميت إلى شمال إفريقيا ليبيا تونس الجزائر المغرب) وهؤلاء حسب إيكو قد سبقوا دي سوسير في اكتشاف الفرق بين الدال والمدلول.

(1)- قدور عبد اللّه ثاني، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2005، ص 45.

(2)-36 dictionnaires et recueils de correspondance.

(3)-"sémiotique." Microsoft® Études 2008 [DVD]. Microsoft Corporation.

(4)- جميل حمداوي، سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة، ديوان العرب، 7 شباط (فبراير2007) ، تم الاسترجاع من : http://ar.wikipedia.org/.

***- المدرسة الإيطاليّة : يمثلها أمبرطو إيكو Eco وروسي لاندي Landi.

- المدرسة الرّوسيّة : يمثلها يوري لوتمان Lotman و وتوبوروف Toporov وإفانوف Ivanov.

- مدرسة باريس : يمثلها مع جوزيف كورتيس Cortés وكريماس Greimas وميشيل أريفي M.Arrivé وجان كلود كوكيه Coquet.

(5)- برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، تر. محمد نظيف، ط/2، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص 37.

(6)- قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم ، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2005، ص 45.

(7)-"sémiotique." Microsoft® Études 2008 [DVD]. Microsoft Corporation, 2007.

(8)-sémiotique." Microsoft® Études 2008 [DVD]. Microsoft Corporation, 2007.

(9)- الجواهري، الصحاح م/1، مادة " سوم " ص 631.

(10)- ابن منظور، لسان العرب، مادة "سوم" دار بيروت للطباعة والنشر، م/12، 1968، ص 312.

(11)- بطرس البستاني، محيط المحيط، مؤسسة جواد للطباعة، لبنان، 1977، ص 443.

(12)-T. Todorov, O. Ducrot : Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langages, édition du seuil, Paris, 1972, p 113.

(13) -O . Ducrot, J. M. Schaeffer et autres : Nouveau Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langages, Seuil, 1972 et 1995, p 213.

(14)- G. Mounin, et autres, Dictionnaire de la linguistique, PUF , Paris, 1974 , p 296.

المراجع

1- ابن منظور، لسان العرب، دار بيروت للطباعة والنشر، م/ 12، 1968.

2- برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، تر. محمد نظيف، ط/ 2، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000.

3- بطرس البستاني، محيط المحيط، مؤسسة جواد للطباعة، لبنان، 1977.

4- قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2005.

5-O . Ducrot, J. M . Schaeffer et autres : Nouveau Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langages, Seuil,1972 et 1995.

6-T. Todorov , O. Ducrot : Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langages , édition du seuil, Paris, 1972.

7- 36 dictionnaires et recueils de correspondance. (CD)

8-«sémiotique.» Microsoft® Études 2008 [DVD]. Microsoft Corporation.